

# أوراق محاصرة

يصعب، حين يريد المرء قولَ كلِّ شيءٍ مرةً واحدةً، قولَ أيِّ شيءٍ على الإطلاق. فمنظومة الأشياء الصغرى تتضاءل أمام فداحة الأمر الكبير.

ويصعب كذلك إخضاعُ هذا الامتداد الطويل من الأسى لتحسينٍ مبسّطٍ يجعله قادراً على البوح. فلعبة البوح خاضعةٌ لاشتراطات شعرية، وسلطانُ الأسى يَبْسُطُ جناحيه ولا يسمح للأرواح الحرة بالانعقاد والتحوّل إلى كائنات عبثية.

أكتب في الوقت الضائع أوراقاً سرّيةً مهزّية من زمن الحصار، ولا أريد أن أكتب وأنا أريض في كهف الحصار لأتحدث عن المشروعات المصادرة، ومحاولات التهميش، والطاقتِ العاجزة، والأدوارِ الناقصة.

لا أريد المرور على الحصار مروراً النسمة على الوردة؛ فالكتابة حالة ترفٍ فكريٍّ يكسر رقبتهَا الحصارُ.

أعلم جيداً أنّ ما يحدث لنا نحن، كمتقفين «حصاريين»، يتصاعد ذروباً لتمثله حالة قرصنة لأفكارنا وتحبيدٍ واستلابٍ لتعدديتها وحوارياتها، وليلجمها صوتٌ واحدٌ: هو صوتُ الحصار.

إنّ أبشع ما يعانيه الكاتبُ هو أن يجد نفسه يقول أفكاره، فيلتهمها ثم يعيد اجترارها، حين يكون الكاتبُ الصوتُ والصدى، الخالقُ والمخلوقُ في أن.

ولا يخفى ما تخلقه حالةُ التغني المرير بالفراة من عزلةٍ مجنونة، واختلالٍ في التنوّع الحواريّ يُفسد نعمة الخلق ولا يحقق انفعالاته الحركية المتموجة والمؤارة بتحوّلات الحياة الماثلة فيه. فالحصارُ سكن، والسكنُ موات.

وأخشى ما أخشاه أن تتأخى مع جرحنا فيصبح عدوُّنا الجميلُ ونقيضنا المرير، نخلع عليه تقصيرنا

وخطوطاً انكفاءً اتنا.

واتوقّف هنا؛ فلا أريد تحويل كلامي إلى عمومية مفصّوحة تتسم بالنزف المباشر. فنجاة الترميز تحيل الأشياء المألوفة إلى مقابلات تشكيلية لها سمتُ اللهب والحريير معاً، لتوحّد بين أطراف المتناقضات.

ولكنّ لا يلبث الحصارُ أن يفرس كلماته في وجدان الورقة، ويصبح رغماً عن أنف المكبوت والمسكوت عنه: ها أنا ذا!

ها هو الحزن ينسكبُ بصيغٍ دالّةٍ تصفع وجه الورقة برماد الأسى، فتعربد وتتطوي وتطير.

الحصار حالة تنكيلية بذروة الوجد بالحياة المتمثلة بالكتابة، فعل الخلود الأزليّ. ولكنّ حين يستنزفها هذا البركانُ الهائجُ من الإذلالات الحصارية، يتشتت تأثيرها ويتحول إلى رمزٍ مضاد.

الكتابة، هذا الفعلُ المضادُ لسطوة الموت، لا بدّ أن يخترق هادراً صنوفَ الحرمان، وأهاتِ الجائعين، ليشعل بنوره الأخضرَ واليابسَ ويغمرهما بفيضه الانبعاثي، منتهكاً عرفَ البكاء، وحالاتِ الشجن العدمية الرابضة في الضمير الجمعيّ الكونيّ المناهض للحصار.

حين نصف الحصار، شؤونه وشجونّه، نتأبى إخضاعه لروح المعيار والقولبة والتقييس. فالحصار مُرٌّ كالعلقم في جوف الماضي، ونهرٍ الحاضر، وعمق المستقبل، هنا وهناك.

تصعب أدلجته، وتحبيره بخطوطٍ سوداء قاتمة، وأخرى أقلّ قتامة، وأخرى شاحبة، أو حمراء أو صفراء.

ليس الحصار مشروعاً ناقصاً لقتل الحياة، يبحث عن اكتماله، بل هو حالة قتلٍ شاملةٌ متحققة الشروط، وغائرة في فواصل التاريخ، وخانقة

شكري موسى صالح  
(استاذة جامعية)

لوقائع الحاضر برباطٍ دائريٍّ مثل  
تعاقب الفصول.

وإذا ما كانت الكتابةُ فعلاً  
أرستقراطياً في مداه وجدواه، تتنامى  
وتتسامى في بحبوحة العيش الرغيد،  
أدركنا ما تعنيه حالاتُ العسر والتقيد  
وهشاشة الأمان الكتابي. فالورق قد  
ينفد، والقلم قد يجف، وتشعُّ فرصةُ  
النشر تحت طائلة أصابع الحصار  
الشیطانية.

للحصار أصابع خبيثة، أطولها  
الروحية والاعتبارية التي تصادر  
رفيف الروح وانشدادها الأزلي نحو  
الانبثاق الحرِّ والمتجدد. وثمة أصابع  
وأخرى ماديةٌ تطول الحياةَ بصورها  
المختلفة.

وإذا ما أردنا ملامسة سطح الواقع  
باستحضار التجربة الخاصة ضمن  
الجوِّ العام، وجدنا أن كثيراً ممَّا يبدو  
خاصاً ينفرد في كون العموم. ولعلَّ  
الفارق بين معاناة المثقف وغيره تحت  
غائلة الحصار يتمثل في ما تمنحه  
شاشة الوعي الحساسة من قدرةٍ  
على تجسيم وجه الحصار  
وتشخيصه والغوص وراء سطوحه  
الخفية.

ولا نريد الخوض في الكثير الذي  
يحسن السكوتُ عنه لفرط تداويلته  
ومألوفيته، مما يتعلق بفقدان أوامر  
الاتصال بالعالم اللاحصاري (أو غير  
الماصر)، فكان حركة الثقافة العالمية  
تندُّ خارج مجرتنا.

ولا نريد الخوض في هجرة  
أصدقائنا بين غربةٍ واغتراب،  
واقْتلاعٍ ونزوح.

لا نريد الخوض في عربات السفر  
الفارغة، والطائرات المقصوصات  
الأجنحة، وشوقنا إلى تقبيل الغيوم.

ولا نريد الخوض في ما تعنيه حالةُ  
القراءة في المصورات، وكتب الخطِّ  
الثاني، من إحساس بالغبن ومفارقة  
الخطوط الأولى في الحياة.

ولا نريد الخوض في ما أعانيه أنا  
شخصياً، حين أحاول إقناع طالبٍ  
باستعادة الدافعية العلمية والثقافية  
وابقائها في الصدارة... بل قبل رغبة  
الخبز ذاته! □

المهد الأخير لأطفال العراق.....

